عرض كتاب

الفرصة الثانية: ثلاثة رؤساء وأزمة القوة العظمى الامريكية

المدرس
بسمة خليل نامق(*)

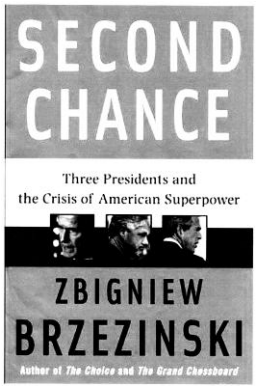

تأليف زبيغنيو بريجنسكي
نترجمة: عمر الأيوبي
الناشر: دار الكتاب العربي،/ بيروت.
سنة النشر ٢٠٠٧
عدد الصفحات: ٢٢٣ صفحة

"مانفيستو جديد"(**) لسياسة امريكا الخارجية

أصدر بريجنسكي في العا م (٢٠٠٧)، كتاباً مهما ما انفك البعض ينظر اليه بوصفه "مانفيستو" السياسة الخارجية لباراك اوباما الكتاب، الذي يحمل عنوناً معبراً هو "الفرصة الثانية: ثلاثة رؤساء وازمة القوة العظمى الامريكية"، يعد استمراراً لكتب سابقة لبريجنسكي كـ "الاختيار: السيطرة على العالم ام قيادة العالم " الذي صدر في عام ٢٠٠٤، وكتاب "رقعة الشطرنج الكبرى: الاولية الامريكية ومتطلباتها الجيوستراتيجية " الصادر في عام ١٩٩٧ الذي يبحث في المسؤوليات والاخطار التي تـواجه امريكا كقوة عظمى، وحيدة في العالم بعد الحرب الباردة. وكعادته في سائر كتبه، يستخدم بريجنسكي اسلوباً رشيقاً وجاداً، مستفيداً من سعة اطلاعه في التاريخ والسياسة الخارجية لعرض وجهات نظره بايجاز يعبر فيه عن فهمه ما معناها ما يحدث جراء الاجراءات العسكرية والسياسية المتخذة بحق منطقة ما على منطقة اخرى في العالم، في ضوء ما يكنه من عداء للامبريالية التي يقودها الغرب.

وفي كتابه الاخير "الفرصة الثانية" يقول بريجنسكي ان ثمة قوة عظمى واحدة، وخمس عشرة سنة، وثلاثة رؤساء؛ وان هذا هو باختصار محور اهتمام هذا الكتاب، الذي يع دهـ "بياناً ذاتياً" لا تاريخاً مفصلاً يحاول فيه الاجابة عن الاسئلة الآتية: كيف فسر قاد /رؤساء العالم الامريكيون الثلاثة الاوائل– جورج اتش دبليو بوش، وولهام جي. كلينتون، وجورج دبليو بوش –جوهر الحقبة الجديدة التي تلت نهاية الحرب الباردة؟ هل كانت تقودهم رؤية ذات صلة بالتاريخ، وهل اتبعوا استراتيجية منسقة؟ أي من قراراتهم السياسية الخارجية ترتبت عليه اهم النتائج؟ هل تركوا العالم افضل مما كان عليه ام اسوأ، والموقف الامريكي في العالم اقوى ام أضعف وما هي الدروس الاساسية التي يجب استقاؤها للمستقبل من اداء امريكا في السنوات الخمس عشرة الماضية بوصفها القوة العظمى العالمية الاولى.

(*) كلية العلوم السياسية–جامعة بغداد

(**) مانفسيتو: كلمة ايطالية لاتينية الاصل تعني بيان نيات ومبادئ عامة.

وبعبارة اخرى يحاول الكتاب تقديم تقييم شامل لحقبة الرؤساء الامريكيين الثلاثة الذين قادوا الولايات المتحدة وحسب، بوصفهم قادة العالم ايضاً.

بوش الاب وسياسته في عالم جديد

في البداية يذكرنا بريجنسكي بالمتغيرات التي حصلت منذ سقوط جدار برلين عام ١٩٨٩ الذي تبعه انهيار الاتحاد السوفيتي، حيث لم تتعرض امريكا في تلك الحقبة لأية منافسة أو أخطار سواء من الغرب او الشرق او الجنوب، اذ ك انت قبلها تخوض حرباً باردة ل عقود عديدة في الوقعة الاوروبية– الاسيوية ضد غريمها الشيوعي . وفي هذا الأطار، يلاحظ بريجنسكي ان القيادة المطلقة للولايات المتحدة للعالم تذكر بمراحل تاريخية سابقة احرزتها بعض الدول، مثل بريطانيا منتصف القرن التاسع عندما سميت "الامبراطورية" التي لا تغيب عنها الشمس "، وبقيادة نابليون لفرنسا واوروبا اوائل القرن الثامن عشر . فاليوم تنتشر القوات الامريكية في جميع انحاء العالم، ولكن هل تمارس الولايات المتحدة قيادتها الدولية بمسؤولية وفعالية من اجل الامن والرفاه الامريكي والعالمي؟ ويحذر من انه كما تعرضت القيادة البريطانية والامريكية للعالم للانهيار فان القيادة الامريكية مهددة بدورها بالزوال . فبعد عقد ونصف من تفردها بقيادة النظام العالمي الجديد، اصبحت النظرة للولايات المتحدة تتسم بالعدوانية بعد ان تبين عدم صدقيتها وغو صها في مستنقع الشرق الاوسط، الامر الذي ادى الى ابتعاد انصارها السابقين عنها.

وعلى الرغم من ان بريجنسكي يحمل الرئيس الحالي جورج بوش (الابن) المسؤولية عن تقويض الموقع الجيوسياسي للولايات المتحدة وسوء فهم الواقع التاريخي، لكنه في الوقت نفسه يشير الى سوء التقدير وضياع الفرص المرتكبة من قبل سلفيه في البيت الابيض.

ومع انه يمتدح جورج بوش (الاب) لجهة تعاطيه مع انهيار الاتحاد السوفيتي برباطة جأش واستطاعته حشد الرد الدولي لغزو الكويت بمهارة دبلوماسية فائقة واتخاذه القرار العسكر ي المناسب، لكنه يرى في المقابل انه فشل في تحقيق نصر تاريخي دائم . ويجادل بريجنسكي بأن بوش الاب لم يستخدم تأثير امريكا السياسي والشرعية الاخلاقية للمساعدة في تحويل روسيا الى دولة ديمقراطية حقيقة كما لم يستخدم النصر المحقق في حرب الخليج الاولى استراتيجياً للضغط من اجل عقد اتفاق اسرائيلي– فلسطيني ينهي الصراع الاساسي في الشرق الاوسط بشكل حاسم . ولهذا سرعان ما تدهورت النظرة الى دور الولايات المتحدة في المنطقة، واصبحت شعوب المنطقة تنظر الى امريكا على انها الوريث الامبريالي للامبراطورية البريطانية ووكيل اسر ائيل، الذي يرفع شعار السلام ثم ينخرط في انتهاج تكت يكات المماطلة والتسويف لتمكين اسرائيل من التوسع في الاستيطان، والمضي في سياسة الحصار والاحتلال .

عصر كلينتون: رؤية مثالية وميراث متناقض

شكل الرئيس التالي بيل كلنتون، برأي بريجنسكي، تحولاً كبيراً في السياسة الامريكية، فقد عّد ان السياسة الداخلية هي التي تصنع السياسة الخارجية وليس العكس. ويصف بريجنسكي كلينتون بانه كان ذكياً ومثالياً، ويملك رؤية جذابة للمستقبل، وربما يكون افرط في التشديد على آثار العولمة الحميدة، لكنه– اعتماداً على عولمة تقودها بلاده–استطاع تحويل عجز الموازنة الامريكية في الادارات السابقة الى فائض كبير.

ويعتقد بريجنسكي ان بيل كلنتون يستحق ان يكون موضعاً لثقة الامة لانه قطع اشواطاً بعيدة في القيام بتسوية في الشرق الاوسط في كامب ديفيد الثانية، ولدعمه حلف الاطلسي ولمساهمته الواضحة في تحقيق الاستقرار في البلقان، لكنه في الوقت نفسه يرى في اسلوب كلينتون اسلوباً انتهازياً عادياً من الناحية السياسية ولا يحقق الوضوح الاستراتيجي، وان ايمانه في الحتمية التاريخية للعولمة جعل من تلك الاستراتيجية عديمة الجدوى، كما انه لم يلق بالا لمحاولات اختراق الحائط الذي استهدف حظر الانتشار النووي، وهو ما مكن كلاً من كوريا الشمالية والهند وباكستان من اختراق هذا الحائط.

ولعل ميراث كلينتون الاكثر شؤماً واحباطاً باعتقاد بريجنسكي يتمثل في فشله في استغلال الفرص التي ظهرت مرتين في الاقل بخصوص العلاقة الاسرائيلية- الفلسطينية. وبسبب الاهواء الذاتية لب عض اصحاب المصالح المؤثرين، فانه لم يستطع ان يجعل- كما كان يحلم- استخدام راس المال الاخلاقي والسياسي للولايات المتحدة لصالح الخير العالمي الاوسع، بل ان الكونغرس بعد غلبة الجمهوريين عليه عام ١٩٩٤ دعم اجراء تخفيضات ضريبية لصالح الموسرين واصحاب الشركات والمصالح الكبرى.

بوش (الابن) وقيادته الكارثية

اما الرئيس الحالي جورج بوش (الابن)، فانه في رأيه يستحق تقدير "فاشل"، لان سجله حافل بالكوارث والمصائب، وفي عهده انحدرت قدرة الولايات المتحدة على حشد التأييد الدولي وتشكيل الحقائق على مستوى العالم، كما ان الولايات المتحدة تورطت تحت رئاسته في حرب كارثية في العراق، واصبح المجتمع الامريكي اسيراً للخوف والعزلة . وطبقاً لتحليل بريجنسكي فان ما يدفع رئاسة بوش (الابن) حتى الان خارج الخط، هو مزيج من تفاؤل مشرق "لنهاية التاريخ" بخصوص قدرة امريكا على فرض قيمها مع كآبة "صدام الحضارات" بخصوص التهديد، الذي يمثل العدو المسلم.

وفي نهاية الكتاب يلخص بريجنسكي الجوهر التاريخي الخاص بكل واحد من الرؤساء الثلاثة بالقول : كان بوش الاول الشرطي الذي يعتمد على القوة والشرعية للمحافظة على الاستقرار التقليدي . وكان كلينتون داعة الرفاه الاجتماعي الذي يعتم د على العولمة لاحداث التقدم، وكان بوش الثاني شرطياً اهلياً يعبئ المخاوف الداخلية لمتابعة كفاح وجودي اعلن عنه بذاته ضد قوى الشر . ولكن قيادة امريكا بتقييمه كانت سيئة، فقد شهدت قدرة الولايات المتحدة على التعبئة والالهام والاشارة الى اتجاه مشترك وصياغة الحقائق العالمية تراجعاً كبيراً، واصحبت القيادة الامريكية للعالم خائفة ووحيدة في علام معاد سياسياً.

ويجد بريجنسكي ان ا هم الاتجاهات الجيوسياسية الرئيسة المعاكسة للولايات المتحدة في السنتين الاخيرتين تكمن في النقاط الآ تية: اشتداد العداء للغرب في كل انحاء العالم الا سلامي، وتفجر الوضع في الشرق الاوسط، وسيطرة ايران في الخليج، وتقلب الاوضاع في باكستان التي تمتلك اسلحة نووية، والسخط الاوروبي، والاستياء الروسي، واقامة الصين مجموعة اسيوية مشرقية، وزيادة عزلة اليابان في آسيا، والموجة الشعبية المعادية للولايات المتحدة في امريكا اللاتينية، وانهيار نظام عدم الانتشار النووي.

الفرصة الثانية لامريكا اوباما

على ان امريكا–كما يؤكد بريجنسكي–ستحظى بفرصة ثانية ولكن بعد عام ٢٠٠٨ (أي بعد رحيل بوش الابن) فلا فرصة لامريكا ابداً مع وجوده . وينبه بريجنسكي الرئيس القادم (باراك اوباما كما اصبح معروفاً لدى الجميع) الى انه يلزمه في المرحلة القادمة سنوات من الجهد المتأني والمهارة الحقيقية لاستعادة مصداقية امريكا السياسية وشرعيتها . وعلى الرئيس المنتخب ان يستقي الدروس الاستراتيجية من اخطاء امريكا الاخيرة فضلاً عن نجاحاتها الماضية. ويؤكد بريجنسكي ان ا مكانية قبول امريكا كزعيمة عالمية في المستقبل ستتوقف في قدرتها على الاجابة عن الاسئلة المعقدة المتعلقة بما يلي:

١. طبيعة النظام الامريكي نفسه: هل النظام الامريكي مجهز بنيوياً لصياغة سياسة عالمية لا تحمي المصالح الامريكية فحسب، لكنها تعزز ايضاً امن العالم ورفاه ه والمحافظة عليها؟
٢. الأنموذج الاجتماعي الامريكي في عالم تتصاعد آماله : هل المجتمع الامريكي جاهز للمحافظة على دور قيادي عالمي الى درجة من ضبط النفس المسؤول المستمد من فهم اساسي للاتجاهات العالمية؟
٣. الاستيعاب الامريكي لحالة العالم الجديدة : هل ستشعر الامة بشكل غ ريزي ما تعنيه اليقظة السياسية العالمية ضمناً الى مستقبل امريكا؟

ويختم بريجنسكي كتابه بالقول : "لا مندوحة عن ان تكون فرصة امريكا الثانية بعد سنة ٢٠٠٨ اكثر نجاحاً من الاولى اذ ليس هناك فرصة ثالثة. فثمة حاجة ملحة لان تصوغ امريكا سياسة خارجية عالمية حقاً في عقا ب الحرب البادرة . لايزال بوسعها القيام بذلك شريطة ان يدرك الرئيس القادم ان "قوة الدولة العظمى تتقلص اذا توقفت عن خدمة فكرة ما "، وان يربط بشكل ملموس القوة الامريكية بتطلعات الانسانية اليقظة سياسياً"[١].

[١] في حفل جرى قبل اشهر من الان، وخلال مدة الاعداد للحملة الانتخابية الرئاسية، خبير السياسة الخارجية الامريكية المخضرم والمستشار الشهير للامن القومي في ادارة الرئيس جيم ي كارتر، زبيغنيو بريجنسكي، قد م السيناتور باراك اوباما لاول مرة بصفته "مستاشره" لشؤون السياسة الخارجية، معلناً انه قبل هذا المنصب: "لانني اعتقد بقوة ان الانتخابات الرئاسية القادمة لن تكون مجرد انتخابات لاختيار رئيس امريكي جديد فحسب، بل لان الاختيار سيقوم به الامريكيون هذه المرة سيعيد تعريف دور امريك في حقبة تاريخية مهمة ". وقال السياسي الامريكي المرموق في تقديمه الرئيس القادم: "انه في كل اربع سنوات يختار الامريكيون رئيساً جديداً، ولكنهم بين كل مدة واخرى يختارون رئيساً تتاح امامه فرصة صياغة احساس جديد باتجاه جديد لامريكا".

وكجزء اساسي من فريق اوباما، اعلن بريجنسكي بوضوح ان الرئيس الديم قراطي المنتخب وفريقه يرون التحدي القادم الذي تواجهه امريكا بشكل مختلف عن اسلافهم الجمهوريين× فهو ليس تحدياً ايديولوجياً وانما تحدياً متعدد الابعاد يمتاز، وفقاً لتعبير بريجنسكي بثلاث مميزات: لصحوة السياسية الكونية والتي تعبر عن نفسها على شكل النشاطات السياسية المكثفة في مختلف انحاء المعمورة، ثم هناك الاخطار والتهديدات التي تواجه العالم مثل التغير في المناخ والفقر وانعدام العدالة . والبعد الثالث والاخير هو التغير في مركز القوة الكونية وتوجهها من العالم الاطلسي الى الشرق الاقصى. وهنا لا يتم الحديث عن انهيار العالم الاطلسي، وانما نهاية الهيمنة الاطلسية التي امتدت لقرون. وبناء على ذلك، ستحدد مكانة ودور الولايات المتحدة على وفق الطريقة التي تستجيب فيها امريكا لهذا التحدي المعقد.